شذرات مشرقيّة، الجزء الثاني

المتروبوليت سابا (اسبر)

تكمن ميزة المسيحيّة الشرقيّة في أنّها، بقدر ما تتحسّس لاستقامة الإيمان، وتدقّق في صياغة قوانينه وحفظها، فإنّها لا تقونن الحياة المسيحيّة، بل تفتح، من أجل عيشها على الصعيد الشخصي، المدى واسعاً أمام التعليم العامّ المنبثق من العقيدة، والقائل بتطبيق الوصايا الإلهيّة، وفق ما يؤول إلى خلاص المؤمن، بإرشاد أبيه الروحي، وذلك، بحسب وضعه وقدرته وظرفه والمستوى الروحي الذي بلغه.

وعلى الصعيد السياسي، لا تحدّد الكنيسة الشرقيّة، والأرثوذكسيّة بخاصّة، التوجّه السياسيّ، بالمعنى الدقيق والمباشر، لأبنائها. فهي تكتفي فقط بتزويدهم بالتعليم المسيحي، وإغنائهم بالروحانيّة الأصيلة، التي تجد لها تجسيداً مسيحيّاً، بالشكل الذي يتناسب وكلّ مجتمع وشعب وظرف وحرب.

ماذا يعني هذا الكلام واقعيّاً؟ لنأخذ بعض الأمثلة. لا تحلّل المسيحيّة الشرقيّة العنف والقتل في أيّ ظرف كان. بمعنى أنّها لا تقول بتبرير القتل في حالات خاصّة وعدم اعتباره خطيئة، وهي، في الوقت ذاته، لا تمنع أبناءها من اتباع ضميرهم الروحي عندما يناديهم إلى مقاومة الشرّ بكلّ أشكاله. وإن اضطرّ المؤمن إلى القتل فيه، فعليه الاستشفاء من العنف الذي اضطرّ إليه. وذلك لكي لا يعتاده سبيلاً لحلّ أيّ مشكلة تصادفه. هذا ما يُعرف مسيحيّاً بالتوبة، وفي علم النفس المعاصر بالاستشفاء.

لا تشرّع، لك، المسيحيّة الأبواب لممارسة القوة، وأنت مرتاح الضمير، بل تعزوه إلى حالة السقوط التي تحيا فيها، والتي قد تضطرّك، في أوضاع معيّنة، إلى الاختيار بين أهون الشرّين.

تتوجّه المسيحيّة الشرقيّة، خاصّة، بالأحرى، إلى داخل الإنسان. تؤمن بأنّ المعركة العظمى روحيّة وساحتها الإنسان الداخليّ. متى عرف المؤمن الخير من الشرّ، على صعيده الذاتي الداخلي، استطاع اختيار كيفيّة التعبير عن محاربة الشرّ، على الصعيد الخارجي.

****

في حالة الإجهاض، مثلاً. لا تحلّل الكنيسة الشرقيّة قتل الجنين، ولا تفتي به، مبرّرة إيّاه، بالاستناد إلى ذرائع طبيّة أو إلى المصلحة الفضلى. وهي لا تقول، بمبدأ أفضلية الأم على الطفل، بشكل مطلق، حتّى عندما يقول الطبّ بحتميّة موت أحد الطرفين: الأم أو الطفل. بل تترك الخيار للوالدين للتشاور مع أبيهم الروحي، ومن ثم اتخاذ القرار الذي يرونه مناسباً. ومن ثمّ الدخول في مرحلة الاستشفاء الروحي.

يهدف الاستشفاء أو التوبة، الذي يخضعان له، من ضمن ما يهدف إليه، إلى ألا يحلّل الإنسان، لنفسه، القتل براحة ضمير تحت أيّ ظرف.

أعرف كاهناً شابّاً، دمشقيّاً، أكدّ الطب بأنّ الجنين، الذي تحمله زوجته، سيكون مشوّهاً، ونصحهما الأطباء بإجهاضه، وكان طفلهما الأوّل. لكنّهما، بعد الصلاة والمشورة الروحيّة، رفضا الإجهاض، وقرّرا الاحتفاظ بالجنين، ورعايته، ولو كلّفهما معاناة قاسية جداً، يوظّفانها في تقديس حياتهما. فكان أن أتتهما طفلة جميلة سالمة النفس والعقل والجسد.

تعالج الكنيسة الشرقيّة مشاكل المؤمنين شخصيّاً، لا بتعميم ديني عامّ، مكتوب بروح قانونيّة شرائعيّة. وهي، على هدي روحانيّتها، المتفهِّمة لمكانة الإنسان في المخطط الإلهي، والتي ترنو إلى خلاص الإنسان والعالم، تتحسّس، بالرحمة، الحكمة الإنجيليّة القائلة: "جُعل السبت للإنسان وليس الإنسان للسبت."

****

إذا اضطررت إلى استخدام القوة في مواجهة الشرّ حتّى توقفه، أو تمنعه، أو تحرّر الآخرين منه، فأنت، كمؤمن، تعي أنّك لجأت إليه، مضطراً، من أجل تخليص الآخرين منه. آنذاك، تُقبِل إليه تضحيةً منك بنفسك، من أجل الآخرين، وأنت عازم، إن بقيت حيّاً بعد زواله، على الدخول في مرحلة الاستشفاء الروحي. آنذاك تكون شاهداً لإيمانك وشهيداً للمحبّة.